باسم الثالوث القدوس

كورس الكنيسة في الثلاث قرون الأولى

المحاضرة السادسة

ملامح الليتورجيا في الثلاث قرون الأولى – ابونا برنابا القمص رافائيل

الليتورجيا هي علم متنامي، ينشأ ثم ينمو تدريجياً بمرور العصور لذلك تسمى الليتورجيا ليتورجيا نامية اي تبدأ وتزيد تدريجياً حتى وصلت للوضع الحالي الذي نعيشه اليوم.

وإذا رجعنا الليتورجيا الأولى فستكون مثل علم الحفريات نزيل طبقات كثيرة من طبقات الزمن التي وُضعت عليها.

فالليتورجيا مختلفة عن العقيدة:

العقيدة ثابتة لا تتغير، لها تفسيرات اوضح ولكن لا تتغير بمرور الوقت، لكن الليتورجيا تنمو في كل خطوة، ندرس الليتورجيا في القرون الثلاثة الأولى لنرى البذور الأولى وأصل الليتورجيا التي نمارسها حالياً.

أهم المراجع التي تحدثت عن الليتورجيا في القرون الأولى:

كتاب موجز التاريخ الليتورجي لكنيسة الإسكندرية لأبونا اثناسيوس المقاري، موجود جزئين، جزء عن العشرة قرون الأولى وجزء عن العشرة قرون الثانية.

كتاب عن الكنيسة في عصر الرسل للمتنيح الأنبا يوأنس (عن الليتورجيا في القرن الأول والثاني الميلادي) وبه كل ما يتعلق بالآباء الرسوليين، ونعرف عنهم من (رسالة برنابا، "الراعي" لهيرمس، ق.اكليمنضس الروماني، رسائل اغناطيوس، الديداخي). هذه الرسائل توضح لما ملامح الكنيسة في بدايتها.

عند تقسيم القرون الأولى نلاحظ الآتي:

الجزء الأول: أول قرن، حتى سنة ١١٧م نهاية عصر اليهودية المنتشرة في هذا الوقت وأصبحوا مطرودين من العالم كله (منها الإسكندرية وروما)، هذه الفترة تُسمى البدايات الأولى، ومتأثر فيها التطور الليتورجي في الإسكندرية بالحياة والطقوس اليهودية، حتى أن الخمس آباء الأولين البطاركة لكنيسة الإسكندرية كانوا من اليهود.

الجزء الثاني: من سنة ١١٧ – ١٨٠م

فترة الآباء الرسوليين، وتم فيها تأليف كتاب الديداخي أو تعاليم الرسل،

وهي الفترة التي بدأت فيها الكنيسة أن تنفصل عن اليهودية وتظهر بكيان مُستقل بدأ ينتشر في ربوع مصر

الجزء الثالث: القرن الثالث فيه إكليمنضس السكندري واوريجانوس،

وفيه بدأت كنيسة الإسكندرية في الازدهار في كل علومها،

ولذلك نلاحظ أن أغلب الشواهد في هذه الفترة من سنة ١٨٠ وحتى أواخر القرن الثالث الميلادي.

++ بذور الليتورجيا في هذه الفترة:

بداية كنيسة الإسكندرية كانت مرتبطة بالتقاليد اليهودية.

مارمرقس بشَّر في الإسكندرية وأسس الرتب الكهنوتية وأسس الأسرار والإفخارستيا وكتب أول قداس وأحضر معه الميرون، وبدأ يكوِّن هذه الكنيسة بأنه رشم أول أسقف عام في الكنيسة وهو إنيانوس وبعد ذلك أصبح البطريرك الثاني، ثم رشم ثلاثة كهنة وسبعة شمامسة.

هذه الفترة كانت بمثابة بذور صغيرة، فمثلاً بدأ القداس بعظة صغيرة ثم صلاة للتقديس واعترف (فمثلاً بولس عندما أطال في العظة حتى منتصف الليل، وبعد هذا كانوا يمارسوا بعدها سر الإفخارستيا (يقولوا ما فعله المسيح وتعاليمه ثم يعلن الإيمان ثم يقدم جسد المسيح ودمه)

هذه البذرة الصغيرة في القرن الأول الميلادي فبتالي البذرة التي كتبها *مارمرقس في قداسه كانت تحتوي على هذا:

١. التعليم او القراءات التي تحتوي على تعاليم المسيح وكتبوها الإنجيلين وهذا ما دفع مارمرقس لكتابه انجيله من أجل التعليم ويسلمه للكنيسة التي يؤسسها.

٢. سلمهم القداس الإفخارستيا في نبته الأولى كما ذكرنا عباره عن العظة التعليم ثم تأسيس السر (ما عمله المسيح) ثم الاعتراف بالإيمان والتوبة والتناول وتوزيع الاسرار.

+ أيضاً في هذه الفترة بدأ عصر الاضطهاد يزداد، ولم يوجد وقتها شكل معين للكنيسة، لكن بدأت تأخذ شكلها في القرن الرابع، بعد منشور ميلان للملك قسطنطين.

فكانوا يصلون في شقوق الأرض والبيوت فلم تكن الكنائس أخذت شكلها أو ملامح للأيقونات أو الزخارف التي كانت موجودة، لكن من ضمن صلواتهم في كل مكان نجد ملاحظات كثيرة جدا كتبها ق. أوريجانوس وق. أكليمنضس السكندري (استروماتا أي المتفرقات وهي من ضمن ٣ كتب كبار ألفهم، كتب فيها عن أمور تخص الإيمان والمسيح وهذا بعد كتاب المربى الذي تحدث فيه عن المسيح ايضاً في الأستروماتا كان ينص أن الصلاة ناحية الشرق حتى لو لم تكن هناك ملامح موجودة للمكان).

١) لما نصلي ناحية الشرق؟

المسيحيون في القرون الأولى كانوا يصلون ناحية الشرق وعندما بدأوا في بناء المباني في القرن الرابع كانت النتيجة البناء ناحية الشرق وليس العكس.

٢) استخدام البخور:

ثاني امر أشار إليه القديس اكليمنضس هو استخدام البخور فيقول "إن كنا نقول إن الرب كرئيس كهنة أعظم يقدم لله بخوراً ذا رائحة زكية فلا نتصور أن ذلك يعني ذبيحة وبخوراً زكي الرائحة ولكن ينبغي أن نفهم أنها تعنى أن الرب يصنع ذبيحة المحبة المقبولة كرائحة روحية عطرة على المذبح"

فهو يتحدث عن البخور المُقدَم في الكنيسة، وأن رئيس الكهنة يقدم نفسه رائحة بخور عطرة على المذبح، يقدم نفسه ذبيحة عطرة مقبولة.

٣) ثلاث رتب كنسية موجودة منذ القرون الأولى:

الأسقفية – القسيسية – الشماسية

في سفر الأعمال واضحة جداً ملامح الرتبة الأسقفية في الرسائل الرعوية التي كتبها بولس الرسول للأساقفة تلاميذه مثل تيطس وتيموثاوس ويظهر فيها عمل الأسقف واضح، ويظهر عمل الشمامسة في الخدمة بوضوح في أع ٦ عند اختيار إسطفانوس وسبع شمامسة لسبب

المشاكل التي ظهرت للأرامل اليونانيات التي كان يُغفَل عنهن في الخدمة اليومية وبدأ يظهر أساس الخدمة الشماسية والخدمة عموماً في الكنيسة.

القسيسية كانت ظاهرة عندما استدعى بولس الرسول قسوس للكنيسة من مليتس.

وكان واضح في التاريخ الكنسي الفرق بين هذه الرتب، وهنا أشار ق. اكليمنضس السكندري إلى استقرار هذه الثلاثة رتب في الكنيسة في وقت مبكر جداً لكنيسة الإسكندرية منذ رسامة مارمرقس لأسقف وثلاث كهنة وسبع شمامسة فيقول: "الثلاث رتب في الكنيسة هي الأسقفية والقسوس والشمامسة وهي اقتداء بالأمجاد السماوية وبالتدبير الذي يقول عنه الكتاب أنه ينتظر أولئك الذين يتبعون خطوات الرسل الذين عاشوا في كمال البر بحسب الإنجيل فأنه سيخدمون أولاً شمامسة وحينئذ يحسبون أهلاً أن يكونوا قسوساً بتغيرهم من مجد إلى مجد حتى يبلغوا إلى إنسان كامل (كتاب الأستروماتا المتفرقات الفصل السادس ١٣)

++ في بداية هذه الفترة حدث تداخل بين عمل الكاهن والأسقف، وهذه ملامح موجودة حتى الآن، فمثلاً: من المعروف الآن أن وضع اليد هو عمل من أعمال رتبة الأسقفية والكاهن له أن يبارك ويمارس الاسرار فقط ولا يضع اليد، ولكن نلاحظ في صلاة المعمودية وجود صلاة وضع اليد وأن الكاهن يضع يده على رأس المُعمَد بعد أن يرشمه بالميرون ثم يقول له كن إناء طاهراً وينفخ في فمه ويقول له أقبل الروح القدس.

فكيف يضع اليد وهي تخص رتبة الاسقفية فقط؟

كان في البداية الكاهن أو الشماس يُعمِّد ثم ينتظر الأسقف او الرسل لوضع اليد واستدعاء الروح القدس ليحل عليهم، ويظهر أيضاً في طقس القداس لأن فيه استدعاء الروح القدس، فكان ممارسة القداس من خلال الأسقف، أو كان يرسل الأسقف الإسباديقون للكاهن ليُقدس به الخبز والخمر ولكن مع انتشار الكرازة، أخذ الكاهن الحل إنه يمارس هذه الأجزاء، واستبدل وضع اليد بالميرون، لكن مازال في بذور الكنيسة والليتورجيا ولم يُحذَف منها شيء، فالليتورجيا تتنامى ولكن لا تحذف شيء،

وكان وضع اليد للكاهن في المعمودية فقط وليس في الرسامات أو أي شيء أخر.

٤) فكرة المعموديات:

وهي بعض الإيمانيات التي كانوا يسلمونها للموعوظين قبل معموديتهم، وكانت موجودة من القرن الأول الميلادي وبدأت تأخذ شكل في القرن الثاني والثالث.

وجمعها البابا أثناسيوس من كل الاساقفة الموجودين في مجمع نيقية ومنها تم صياغة قانون واحد تعترف به كل الكنائس وهو قانون الإيمان مع إضافة بعض العبارات التي كانت تستخدم في الرد على بدعة أريوس.

لذلك نلاحظ في الاجزاء المكتوبة من الإيمانيات أو المعموديات التي كانت تُسلَّم للآباء النص الموجود في سر المعمودية "نؤمن بإله واحد الله الآب ضابط الكل والرب ابنه الوحيد يسوع المسيح والروح القدس المُعزي وقيامة الجسد والكنيسة الواحدة".

هذه الإيمانيات أو المعموديات أخذها البابا أثناسيوس وأضاف إليها "مساوي للآب في الجوهر" ليرد على بدعة أريوس.

وأيضاً البابا كيرلس عندما أضاف "نعم نؤمن بالروح القدس"، "نؤمن بالروح القدس" كانت موجودة في نصوص المعموديات، وعند ظهور بدعة تدعى أن الروح القدس قوة وليس أقنوم، فبدأ بإضافة هذا النص لقانون الإيمان،

إذاً كل النصوص الإيمانية الموجودة، هي موجودة من القرون الأولى، البابا أثناسيوس لم يؤلف قانون إيمان جديد ولكن جمَّعه وأضاف إليه الرد على بدعة أريوس.

٥) التسبيح:

أغلب الصلوات التي كانت موجودة في القرون الأولى توجد شواهد توضح أن كنيسة الإسكندرية كانت تصلي ٤ صلوات حتى القرن الثالث لم نسمع شيء عن الأجبية، ولكن بدأت تظهر في أواخر القرن الثالث كنائس في غرب أفريقيا وكنيسة أورشليم كانت تصلي صلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة وصلوات العشاء، ثم انتقلت لكنيستنا قبل القرن الرابع الميلادي، وبدأ يظهر لكل فترة الصلاة والطلبة الخاصة بها، وبدأت تُصاغ الأجبية في هذه الفترة، لكن قبل ذلك كانوا يُصلُّون المزامير والطلبات بناء على كل فترة من فترات اليوم.

+ بداية ظهور نغمات ثابتة لألحان صغيرة:

⇦ مثل "ذوكصابتري كيه أيو كيه أجيو بنفماتي" وهي منتشرة في كل الكنائس التقليدية وهي من أقدم الصلوات وتسمى الذوكصا أو التمجيد وكل الشعب في نهاية كل طلبة يقولها الأسقف أو الكاهن، يرد الشعب "ذوكصابتري"

ونحن في نهاية الرشومات في القداس يقول الشعب ذوكصابتري

وأيضاً في كل قطع الأجبية، تُقال في نهاية كل قطعة "المجد للآب والابن والروح القدس"

⇦ الذوكصابتري من الصلوات المُسلَّمة في الكنيسة من القرن الأول الميلادي وكانت صلاة منتشرة جداً والدليل على ذلك أنها منتشرة في كل الكنائس التقليدية،

الكنائس التقليدية بينها الكثير من الأمور المشتركة وغالباً هذه البذور المشتركة موجودة قبل الانقسام قبل مجمع خلقدونية أي في القرون الأربعة الأولى،

بعد الانقسام أصبح لكل كنيسة تراثها من الألحان والطقوس الذي بدأ بالتكون بعد الانفصال لكن يوجد الكثير تم تسليمه قبل الانقسام مثل صلاة الشكر وصلاة النوم الكبرى.

⇦ وصلاة الشكر من أقدم الصلوات الموجودة وتوجد بها أجزاء كبيرة يهودية، لأن في القرن الأول تأثرت كنيسة اسكندرية بالصلوات اليهودية فصلاة الشكر هي صلاة يهودية ولكن أضافت لها الكنيسة تعريفات مثل ضابط الكل وأنه آب ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، ويخاطب الآب مباشرة "لأنك سترتنا وأعنتنا ..." ويطلب من أجل كل حسد وكل تجربة وكل فعل الشيطان ... انزعها عنا ...، "لا تدخلنا في تجربة لكن نجينا من الشرير" هذا الجزء استلمناه من السيد المسيح في "أبانا الذي"

+ في أغلب الصلوات، يختم الكاهن "بالنعمة والرأفات ومحبة البشر اللواتي لابنك الوحيد" استناداً للآية: "إِنَّ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ مِنَ الآبِ بِاسْمِي يُعْطِيكُمْ." (يو١٦: ٢٣). إِلَى الآنَ لَمْ تَطْلُبُوا شَيْئًا بِاسْمِي. اُطْلُبُوا تَأْخُذُوا، لِيَكُونَ فَرَحُكُمْ كَامِلًا." (يو١٦: ٢٤) التي أُختُذلت في "أبانا الذي" إلى "بالمسيح يسوع ربنا".

بعض الناس يقول إن الصيغة الأساسية لصلاة "أبانا الذي" في الإنجيل غير موجود بها "بالمسيح يسوع ربنا" لكننا أضفناها أستناداً للآية (يو١٦: ٢٤)، لأنه ليس لنا دالة أمام الآب إلا بالمسيح يسوع ربنا.

حتى في ختام الأواشي، نختم "بالنعمة والرأفات ومحبة البشر"، فحتي الإضافة كانت موجودة منذ القرون الأولى

+ **تسبحة المزامير**، المزمور ١٥٠ منتشر جداً منذ القرن الثاني الميلادي

العلامة اكليمنضس السكندري في كتاب المُربي: قال إننا نُسبح في المزمور ١٥٠ ونقول:

سبحوه بصوت البوق لأنه بصوت البوق سوف يدعوا الراقدين إلى القيامة.

سبحوه بالمزمار أي اللسان الذي هو مزمار الرب.

سبحوه بالقيثارة وهي الفم حينما يحركه الروح القدس كالوتر.

سبحوه بطبول ورقص: يشير إلى الكنيسة التي تتأمل القيامة من بين الأموات من خلال وقع الضرب على الجلود (إشارة إلى الأموات).

سبحوه بأوتار وأرغن: فالأرغن هو الجسد وأعصابه هي الأوتار التي حينما تتقبل الانتعاش بانسجام الروح القدس، يوقّع عليها بالأصوات البشرية.

سبحوه بصنوج حسنة الصوت فهو يشير إلى الشفتين في الفم حينما يوقع عليها النغمات.

كل نسمة فلتسبح أسم الرب: هنا يدعو البشرية كلها أن تُسبِّح لأنه يعتني بكل مخلوق يتنفس، والإنسان هو حقاً آلة السلام.

++ نلاحظ أنه ترجم كل أدوات العزف وآلات الإيقاع الموجودة في مزمور ١٥٠ على الجسم البشري، وهذا يعطينا دليل أنه في كنيسة الإسكندرية من أول أيامها لم تستخدم أي معزوفات أو آلات للعزف إلا آلات الإيقاعات فقط مثل الدف والترياتو، وأيضاً تأملات وترجمات الآباء في المزمور ١٥٠ كانت تترجم على الأحبال الصوتية أو صوت الإنسان وكل ما يتعلق به وليس على آلات تُستخدَم.

المزمور ١٥٠ يستخدم في كل ممارسات الكنيسة، في كل أسرار الكنيسة (المعمودية والقداس) وكل ما يتعلق بقبول نعمة، وفي التسبحة واللقان.

+ ملامح الليتورجيا في هذه الفترة:

+ إقامة القداسات: نتيجة الاضطهادات كان أغلب القداسات تُقام ليلاً، واحياناً وقت الفجر (السَحَر) العلامة إكليمنضس يقول"إن الأسرار في أغلب الأوقات ليلاً إشارة إلى مناسبة انطلاق النفس من الجسد التي تحدث ليلاً".

وفي القرن الرابع بعد أن تم نقل القداسات إلى فترة الصباح، احتفظنا ببذرة القداسات الليلية في ثلاث مناسبات وهي: عيد الميلاد والغطاس والقيامة.

+ الاحتفال بميلاد المسيح لم يكن متجلي في القرون الأولى، لكن بدأ يظهر بعد القرن الرابع، فالاحتفالات الرئيسية كانت بعيد القيامة (وهو الاحتفال الأساسي والأضخم في الكنيسة) والثاني هو الابيفانيا أو الثيؤفانيا أو عيد الظهور الإلهي أو الاستعلان الإلهي (عيد الغطاس).

بعد إنكار ناسوت المسيح من خلال البدع والهرطقات بدأ الآباء في الاحتفال بعيد الميلاد لأثبات ناسوت السيد المسيح.

لكن هناك فرق كبير بين الليتورجيا الشرقية والغربية:

الليتورجيا الغربية في كنيسة روما تؤكد على التجسد لدرجة أن عيد الميلاد بالنسبة لهم من أعظم الأعياد والأكثر انتشاراً.

أما في الكنائس الشرقية فالاحتفال الأكبر يكون بعيد القيامة الذي هو رأس الأعياد ونحتفل به ٥٠ يوم الخماسين المقدسة، ونحتفل به أيضاً في كل يوم أحد (يوم الرب) وفي كل صباح في صلاة باكر.

في فترة الثلاث قرون الأولي لا ننكر عمل البابا ديمتريوس الكرام سنة ١٨٩: ٢٣١ م في تحديد ميعاد عيد القيامة باستخدام الحساب الأبقطي كان في القرن الثالث الميلادي، وبدأت فكرة التقويم في الظهور، فبدأ وضع التقويمات والقوانين.

+ مغفرة الخطية:

قصة القوي الأنبا موسى الأسود (أنه كان جالس في وسط مجمع الدير يعترف بخطيته لمعلمه وأبيه الروحي الأنبا إيسيذوروس، وكان حاضر الأنبا مقار ورأي لوحاً يُمحى من عليه جميع خطايا الأنبا موسى) ففي القرون الأولى كان الاعتراف أمام مجمع الكنيسة بالكامل ويقر كل واحد بخطاياه ثم يتقدم

للمعمودية فتكون الكنيسة كلها شاهدة على توبة هذا الشخص، ولم يكن يخجل أحد من الاعتراف أمام الكنيسة لأنه يعلم جيداً أنه لن يُدان من أحد.

في الفترات التالية لذلك بدأ المعترف يعترف على الكاهن سراً، وبدأت تظهر صلوات سرية تُسمى أسرار بعد القرن الرابع يصليها الكاهن أو الأسقف، لكن في البداية قبل ذلك كانت صلوات وطلبات جهرية لذلك نجد في القداس مردات للشماس بعد الصلوات السرية كانت تقال جهراً لتنبيه الناس لأن دور الشماس تنبيه الناس لذلك كانت تقال جهرا

أيضاً لها طلبات مثل طلبة الأواشى "إشليل" ولها البركة "إيرينى باسي" وهي موجودة قبل سر بخور البولس والإبركسيس، وهذا معناه انها سابقاً كانت تقال جهراً ولكن الآن سراً.

+ كل الأسرار كانت تمارس منذ القرون الأولى، ولم يكن البناء الليتورجي لها بالصورة التي نراها اليوم، لكن كل بذور الليتورجيا عند فحصها سنجد بذرة القرون الأولى.

ونلاحظ في كل الشواهد الطقسية التي نمارسها اليوم لها بذرة في القرون الأولى

ولإلهنا الْمَجْد الدائم مِنْ الْآنَ وإِلَىّ الْأَبَد أمِين